Le Liban des annéss 1930 jusqu'a l'indépendance
Les mobilisations sociales et politiques des annéss 1930
Université de Balamand
2 Juin 2014

عبد الرؤوف سنّو

يقول البعض إن ولادة دولة لبنان الكبير، كان قراراً خاطئاً، لأنه جعل كلاً من الطائفتين المسيحية والإسلامية تفقدُ سيادتها السكانية السابقة في الدولة المستحدثة. فكان المسيحيون الأكثرية في جبل لبنان، في حين ساد المسلمون في المدن خارج الجبل. وقد اعتقد الموارنة أنهم بقيام دولة لبنان الكبير حققوا، طموحاتهم في دولة مستقلة طالما تاقوا إليها. أما المسلمون، فشعروا بأنهم اقتلعوا من جذورهم العربية والإسلامية، وبخاصة السورية. لكن منذ أن أصبح لبنانَ حقيقةً "وطناً ودولة"، أدت مسائلُ عديدة إلى تأزيم العلاقات بين الطائفتين بدلاً من تمتينها على أسس وطنية بسبب:

1- اعتمادُ نظامٍ طائفي يوزعُ المناصب على أساس نسبي لكل طائفة. وهذا ما فتح الباب أمام شكاوى الحرمانِ والغبن والتسلط على باقي الطوائف وقضى بالتالي على التماسكِ الوطني.

2- هوية اللبنانيين وما يتفرع منها من أيديولوجياتٍ ثقافية متنافرة. فبعدما كان المسيحيونَ من رواد الثقافة العربية واستخدموها للتلاقي مع المسلمين عشية الحرب العالمية الأولى وخلالها في مشروع للتخلص من الحكم العثماني، اضحوا بعيدَ إنشاءِ لبنانَ الكبير يخشَوْنَ من إمساك المسلمين بالدولة الناشئة، وأن يتحولَ المسيحيون بالتالي إلى أقلية في بحر عروبي-إسلامي. ومن هنا، رفع القوميون اللبنانيون شعاراتِ الحضارة اللبنانية التي تجعلُ من لبنانَ كياناً قائماً بذاته مغايراً للعروبة. وفي المقابل، تحولت العروبة المعجونة بالإسلام إلى تيار يستقطب المثقفين والجماهير الإسلامية.

3- إن الافتراقَ بين اللبنانيين حول الهوية، المؤجج بمشاعر الخوف لدى كل طائفة (المسيحيون من الذوبان في بحر إسلامي، والمسلمون على شخصيتهم العروبية أو الإسلامية من لبنان مسيحي متفرنس)، جعلَ الطائفتين تسيران وراء مشاريع كيانية تجسدُ هويةً ذات "حدود قومية" المسيحيون: لبنان بحدوده المنفصل عن العالم العربي، والمسلمون: لبنان الجزء الذي لا يتجزأ من حدود دولة سورية، أو حيّز جغرافي يقوم على الدين. ولم يتمكن الميثاق الوطني بتعريفه الملتبس لهوية لبنان من حلّ المشكلة. فاستند المسيحيون الموارنةُ إلى مفهوم "الأمة اللبنانية" الذي ورد في الدستور للدلالة على هويةِ الشعب في لبنان منفصلٍ عن الأمة العربية، فيما رفض المسلمون مفهومَ "الأمة اللبنانية". فالأمةَ، في نظرهم هي الأمة العربية أو الأمة الإسلامية.

4- تطلع كل طائفة إلى الخارج للحصول على دعم لمشاريعها التي تبرز شخصيتَها.

ماذا يعني هذا الكلام؟ يعني إن النظام الطائفي والطائفية المجتمعية شكلا عائقاً أمام ظهور هوية وطنية لبنانية. فجعلا لبنان أرضاً تتعايش عليها طوائف دينية تمجدُ كل واحدة منها تاريخها الخاص وثقافتها وقيمها، وصولاً إلى إنشاء كياناتٍ تقومُ على القومية أو على الدين.

سأتطرق هنا إلى اللغة والتعليم والنظرة إلى التاريخ، كمحددات للصراع على الهوية، ثم أتناول مشاريع الطوائف الكيانية التي تجسد الهوية.

عقبَ إنشاءِ دولةِ لبنانَ الكبير، ظهر خلافٌ حاد بين الطوائف اللبنانية حول الدور الثقافي للغة العربية. ورأى مسيحيون أنّ لا شيء يجمعهم بالعرب سوى اللغةِ العربيّة وآدابِها، وهي ليست تعبيراً قوميّاً أو دلالة على وجود أمّة عربيّة كحقيقة واقعيّة. وكان استخدام العربية والتدريس بها، وفق القوميين اللبنانيين يضفيان على البلد ثقافةً عربيّة – إسلاميّة تجعلُه يخسرَ طابعَه المسيحي المميّز. من هنا، جرت محاولات منذ العشرينيات لإحلال العامية اللبنانية محل العربية الفصحى واستعمال الحرف اللاتيني محل الحرف العربي. ففي العام 1926 حكومة حبيب باشا السعد أصدرت مرسوماً جعلت اللهجة اللبنانية لغة رسمية في الدولة، وقررت إحلال الحرف اللاتيني محل العربي؛ وفي العام الذي سبق، اصدر الخوري مارون كتاباً بعنوان: "حياة اللغات وموتها، اللغة العامية" دعا فيها إلى نبذ العربية، لأنها ماتت. وفي العام 1955 أصدر كتاباً بعنوان: نحو عربية ميسرة". وفي العام 1944، ألقى يوسف الخال محاضرة بالعامية أثارت حماس الداعين إلى العامية اللبنانية. وقد نشط في مجال العامية اللبنانية في ما بعد سعيد عقل وأنيس فريحة وسليم عبود وغيرهم.

أما المسلمون، فرفضوا اللهجة اللبنانيّة بديلاً من اللغة العربيّة الفصحى، معتبرين أنّ ذلك يخدمُ إرادةً استعمارية ومحاولة للتقليل من شأن العربية باعتبارها لغة القرآن. وهذا الخلافُ، انسحب على تدريس اللغات الأجنبية في المدارس من خلال الكتب الأجنبية، وانقسام اللبنانيين إلى فئتين، مسيحيةٍ تستنبطُ ثقافةً أجنبية، وإسلاميةٍ تستعملُ اللغةَ الأجنبية كمادة تعليمية ووسيلة تفاهم، من دون أن تنخرط في ثقافة هذه اللغة.

أما بالنسبة إلى مقاربة الماضي. فأصبح التأريخ حقلاً للتلاعب الأيديولوجي والتشريب الأيديولوجي وانعكاساً للحالة المجتمعية والثقافة الطائفية. ولأن المدرسة في لبنان عموماً هي بيئة حاضنة لكل أنواع الفرز (والطبقي والطائفي والمناطقي، فقد لبى التأريخُ المدرسي رغبةَ ثلاثةَ اتجاهاتٍ أيديولوجية رئيسية: الاتّجاه القوميّ المارونيّ الذي حاول إثباتَ هويّةَ لبنانَ المميّزة عن محيطه عبر ارجاعِ تاريخِه إلى الفترة الفينيقية والتشديدَ على مقولةِ "لبنانَ المجأ" ومقاومتِهِ الحكمَ الإسلامي. في المقابل، رفض المسلمون أيةَ روافد فينيقية أو عربية قبل الإسلام (الجاهلية) وحتى غربية للثقافة اللبنانية.

أما الاتّجاه الثاني، فهو القوميّ العربيّ الذي أكد ارتباطَ لبنانَ بمحيطه العربيّ؛ وأخيراً الاتّجاه الإسلاميّ الذي شدّد على أثر الإسلام في العروبة وارتباط لبنان بالعالم الإسلاميّ.

ولأن كلَ طائفةٍ كان تسعى إلى إبراز هويةٍ مغايرة للبنانِها، فقد أدى ذلك إلى بروز مشاريع كيانية عربية-إسلامية ومسيحية تستند إلى هوية قومية أو هوية دينية.

خلال الثلاثينيات، ظلَّ المسلمون يتمسكون بعودةِ الأقضية الأربعة والشريط الساحلي إلى سورية، مخيرين المسيحيين إما بتحويل لبنان إلى دولة فدرالية، أو إعادةِ جبلِ لبنان إلى حدوده السابقة، فيعود مسيحياً، فيما يلتحقُ المسلمون بسورية. هذه الدعوة راوحت ما بين التهديد لابتزاز المسيحيين والحصولِ منهم على تنازلات في لبنان الكبير، وبين الجديةِ في أن يعود مسلمو لبنان إلى حضن سورية. لكن بعد المعاهدة الفرنسية –السورية في العام 1936، كان من الواضح أن لا مشروعاً إسلامياً ثابتاً للانفصال عن لبنان، وأن الدعوة إلى الفدرالية ليست جادة، لأنها كانت ستقطّع أوصال المسلمين في لبنان.

في المقابل، كان هناك مشروعُ "لبنان وطن مسيحي" لموارنة لبنان. فعند ترشيح الشيخ محمد الجسر نفسَه لرئاسة الجمهورية، اعتبرت قيادات مارونية أن "لبنانَ المسيحي" سيكون معرضاً للزوال عند وصولِ مسلمٍ إلى رئاسة الجمهورية، وعندها سيتأسلمَ ويدور في فلك سورية، خاصة أن نصفَ سكانِ لبنانَ المسلمين تتزايد أعدادُهم وتحركُهم طموحات سياسية لأن يمسكوا بدفة الحكم أو أن يتوحدوا مع سورية. فسارع المفوض الفرنسي إلى تعليق العمل بالدستور وحل المجلس النيابي وأجلّ الانتخاباتِ الرئاسية.

استمرت مساعي موارنة إلى تحويل لبنان الكبير إلى وطن للمسيحيين وحدَهم وبقيادتهم حتى مطلع الاستقلال. فصرح البطريرك عريضة في العام 1933 بالقول: "إن لبنان وطن مسيحي"، وما ضُمَّ إلى سورية هو في الأساس لبناني محض. ووزع كُتيّباً بعيد التوافق على الميثاق الوطني بعنوان: "وطن قومي للنصارى في الشرق الأوسط". وسبق أن سرت شائعاتٍ في العام 1929 أنّ إميل إده طالب بترحيل المسلمين إلى مكة والدروز إلى حوران، كي يصبحَ لبنانَ وطناً للمسيحيّين تحت الوصاية الفرنسية. وبعد الإحصاء السكاني في العام 1932 الذي أظهر تفوُّقاً عدديّاً ضئيلاً للمسيحيّين على المسلمين، اقترح إده تصحيحَ الديموغرافيا المسيحية بإخراج مناطقَ ذات كثافة إسلامية في الشمال والجنوب من حدود لبنان الكبير وضمِها إلى سورية، من أجل استعادة "لبنان الصغير"، بعد إضافة بيروت إليه. وكان للمطران مبارك دعوةً مشابهة لإعطاء لبنان هوية مسيحية بعد اقتطاع مناطق إسلامية في الجنوب إلى فلسطين.

لقد ذكر تقريرٌ بريطاني في العام 1942، أن المسيحيين والمسلمين يهتمون بوضعِهِم الطائفي دون وضعِهم العام كلبنانيين. ولا تزال هذه الحقيقة تحتفظ بصحتها حتى اليوم. فلبنان لم يتحول إلى وطن لجميع أبنائه، فيما لا تزال تطفو على السطح هوياتٍ دينية ومذهبية.